الباب الرابع

محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ المثل الأعلى للإنسان الكامل

* المهام التى كُلف بها صلى الله عليه وسلم.
* الغرض من بعثته صلى الله عليه وسلم.
* إنسانيته صلى الله عليه وسلم.
* أخلاقه صلى الله عليه وسلم.
* عبادته صلى الله عليه وسلم.
* حفظ الله تعالى له صلى الله عليه وسلم.

obeikandl.com

عـــــن:

١ ـ المهام التى كلف بها ـ صلى الله عليه وسلم ..

يقـــــول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴾. (١)

فى الأبواب الثلاثة السابقة أصخنا السمع معا للقرآن الكريم وهو يحدثنا حديثا مستفيضا عن البشارات التى سبقت مولد رسولنا الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم عن نبوءته وبعثته، ثم عما تعرض له ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أذى أو اضطهاد.

والآن.. تعالوا لنصغى معا لحديث القرآن الكريم عن شخصية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تلك الشخصية الفذة، الفريدة فى باب الإنسانية كلها، المميزة بسجاياها،

(١) سورة الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٧.

وأخلاقها، وسلوكياتها، تلك الشخصية التى لم يع التاريخ فى أى فصل من فصوله أروع ولا أعظم منها..!

ومن أحاديث القرآن المتنوعة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حديثه عن المهام التى كلف بها، والأمانة التى حملها.. لقد تناول القرآن الكريم هذا الموضوع فى أكثر من سورة من سوره الشريفة، وحسبنا فى دراستنا هذه، تلك الآيات التى جاءت فى سورة الأحزاب من الآية ٤٥: ٤٧، والتى صدرنا بها هذا الباب.

لقد اقتضت طبيعة بعثته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أن يكون ﴿ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾(١).

إنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبشر بنعيم مقيم فى جنة عرضها السموات والأرض لمن سمع دعوته، واستجاب له، فأمن واتقى، وعمل بما جاء به من عند ربه ـ عز وجل ـ فأتمر بأمره، واجتنب ما نهى عنه.

ونذير.. بين يدى عذاب شديد، لمن لم يستجب لدعوته، ولم يؤمن بما جاء به من عند رب العالمين ـ تبارك وتعالى ـ

(١)سورة الأحزاب: ٤٥، ٤٦.

نذير لهؤلاء الذى تنكبوا الصراط المستقيم، وركبوا رءوسهم، وتمادوا فى غيهم وضلالهم، وعكفوا على عبادة أصنام لا تضر ولاتنفع، بل لا تجلب لنفسها نفعا، ولا تدرأ عن نفسها ضرا.. نذير لمن لم يستجيبوا لما يحييهم..!

وداع.. إلى الإيمان بموجد هذا الكون، ومالك أمره، ومصرف شأنه.. إلى الإيمان بوحدانيته ووجوده ـ سبحانه وتعالى ـ وأنه لا يستحق العبادة والطاعة إلا هو عز وجل..!

وسراج.. ينير دروب الحياة لتسلكها البشرية على هدى وبصيرة؛ حتى تصل على ضوء ما جاء به من هداية وإيمان ورشاد إلى بر السلامة وشاطئ الأمان.. إنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ سراج بسلوكه وأخلاقه ودعوته، قال تعالى:

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١).

وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ سراج بما يحمل من قرآن كريم، قال ـ سبحانه:

(١)سورة المائدة: ١٥: ١٦.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾(١).

وقال ـ عز وجل ـ: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(٢).

***

أما أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ شاهد.. فهو شاهد على إيمان من آمن، وكفر من كفر من أمته، بل ومن الأمم السابقة.. ولقد أكد رب العالمين ـ سبحانه وتعالى ـ تلك القضية تأكيدا لا يدع مجالا للشك. إذ صرحت آيات كثيرة بهذا المعنى.. منها قوله ـ تعالى ـ:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾(٣).

---

(١) سورة الشورى: ٥٢، ٥٣.

(٢) سورة التغابن: ٨.

(٣) سورة المزمل: ١٥.

وقوله ـ سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(٢)

وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾(٣).

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة والحج، زادتنا أمرا آخر.. هو: أن هذه الأمة ستكون شاهدة على الأمم السابقة يوم القيامة أمام الله ـ عز وجل ـ وأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيزكى هذه الشهادة، فيشهد على عدالة هذه الأمة.

لكن..! كيف يتحقق ذلك..؟؟ روى الإمام البخارى بسند ينتهى إلى أبى سعيد ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**يدعى نوح يوم القيامة، فيقال له: هل بلغت..؟؟، فيقول ـ عليه السلام ـ: نعم، فيدعى قومه، فيقال لهم: هل بلغكم..؟؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك..؟، فيقول: محمد وأمته..!!**».

---

(١) أى: عدولاً أو خيارا.

(٢) سورة البقرة: ١٤٣.

(٣) سورة الحج: ٧٨.

وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**يجئ النبي يوم القيامة، ومعه الرجلان وأكثر من ذلك، فيدعي قومه، فيقال: هل بلغكم هذا..؟ فيقولون: لا..، فيقال له: هل بلغت قومك..؟، فيقول: نعم، فيقال: من يشهد لك..؟ فيقول: محمد وأمته، فيدعي بمحمد وأمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه..؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما علمكم..؟ فيقولون: جاءنا نبينا ـ صلي الله عليه وسلم ـ فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا.. فذلك قوله تعالي:**

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(١).

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه، وابن أبى حاتم بسند ينتهى إلى جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**أنا وأمتي يوم القيامة علي كوم(٢) مشرفين علي الخلائق، مامن الناس أحد إلا وَدّ أنه منا، وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه ـ عز وجل**».

---

(١)سورة البقرة: ١٤٣.

(٢) الكوم: المواضع المشرفة العالية واحدها: كومة.

وعـــن:

٢ ـ الغاية من بعثته ـ صلى الله عليه وسلم..

يقـــول:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾(١)

أجل.. ! لقد كانت بعثته ـ صلى الله عليه وسلم ـ رحمة ما بعدها رحمة.. رحمة للإنسانية كلها فى حياتها الدنيا الفانية.. رحمة لها فى آخرتها الباقية.. !

لقد كان الناس قبل بعثته ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعيشون.. ،وكأنهم يعيشون فى غابة.. لا قانون يحتكمون إليه إلا القوة، القوى فيهم يسلب حياة غيره، وماله، وعرضه.. والضعيف ضائع مستعبد للغير.. فلما بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حرر المجتمع من هذا الظلم، وانتزع منه كل أنواعه، ونشر فيه الطمأنينة والأمن على

(١) سورة الأنبياء: ١٠٧.

النفس، والمال، والعرض.. فعاش الناس فى سلام ووئام، يظلهم احترام متبادل، ومحبة ومودة، وذاك لعمرى رحمة ما بعدها رحمة..!

ومن أثر بعثته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أن من آمن به، وبدعوته.. يعيش فى سلام نفسى، فلا قلق، ولا خوف، ولا تمزق نفسى، ولا ضياع..!، وهذه الراحة النفسية هى سعادة لا مثيل لها.. بل قل: رحمة ما بعدها رحمة..!

هذا السلام النفسى، الذى هو أثر مباشر من آثار بعثته ـ صلى الله عليه وسلم ـ تفتقده المجتمعات اللادينية.. فهم وإن كانوا قد وصلوا إلى قمة التحضر والتمدن إلا أنهم يعيشون فى قلق وتمزق، وضياع.. وهذا شقاء ما بعده شقاء..!

هذا فى الدنيا.. أما فى الآخرة فمن آمن به، واهتدى بهديه، واتقى ربه ـ سبحانه وتعالى ـ فإن مأواه جنة عرضها السموات والأرض.. يتمتع فيها بما لاعين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.. وهذه رحمة مابعدها رحمة..!، قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ

تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾(١)

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(٢)

***

* **صور من الرحمة التي بعث بها:**

أ ـ **إنصافه المرأة:** لقد كانت المرأة قبل الإسلام مهضومة الحقوق مهيضة الجناح، وكان ينظر إليها فى كثير من المجتمعات على أنها من سقط المتاع. ففى الجزيرة العربية.. كان الكثير منهم ينظر إليها على أنها شئ غير مرغوب فيه، فإذا بشر أحدهم بأن زوجته ولدت له أنثى استشاط غضبا، واستولى عليه حزن قاتل، وكآبة لا تحتمل، وحيرة لا مخرج منها.. أيتركها تحيا ويحيا معها العار..؟ أم يدفنها فى التراب..؟ يقول ـ سبحانه وتعالى ـ:

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾(٣).. !!

(١) سورة الرعد: ٢٨: ٢٩
(٢) سورة الزمر: ٢٢.
(٣) سورة النحل: ٥٨، ٥٩.

كانت كذلك من سقط المتاع، تورث كما تورث تركة الميت، يرثها ابن زوجها الأكبر، فإن شاء تزوجها بعد أبيه من غير مهر، وإن شاء زوجها من يريد ويأخذ هو مهرها.

أما عند اليهود.. فكان من حق أبيها أن يبيعها وهى صغيرة ويقبض ثمنها.. وفى المجتمعات الغربية كانوا ينظرون إليها على أنها رجس من عمل الشيطان، وما خلقها الله سبحانه ـ فى زعمهم ـ إلا لتكون خادمة للرجل فقط، وليس لها عندهم حقوق على الإطلاق..!

تلك مكانة المرأة فى المجتمعات كلها قبل الإسلام، وبُعث نبى الرحمة، إمام الأنبياء، وخاتم المرسلين محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرفع من شأنها، وأعلى من مكانتها، وعمل على صيانة شرفها وعرضها، وحافظ على كرامتها، ومنحها حق المساواة مع الرجل فى الأمور الإنسانية، وفى المعاملات المالية، وفى طلب العلم، وفى حق الإرث والتملك.. إنها ترث غيرها ـ كالرجل تماما وإن كان نصيبها على النصف منه لاعتبارات كثيرة ـ ترث أباها، وترث ابنها، وترث أخاها، وترث زوجها، يقول ـ سبحانه وتعالى ـ:

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً

فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ﴾. ويقول ـ سبحانه: ﴿ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ﴾(١)

ياله من عدل وإنصاف.. لا نجد لهما مثيلا فى غير الشريعة الإسلامية الغراء.. لقد كانت قبلُ تورث ولا ترث، بل كانت تباع وتشترى، وتدفن حية فى التراب.. فلما بعث نبى الرحمة بشريعة الإسلام العادلة الرحيمة.. رفع من خيستها، ورد لها اعتبارها كإنسانة، ومنحها حق التملك كالرجل تماما..

كانت قبل الإسلام تجبر على الزواج، ولا يقام لرأيها فيمن سيشاركها حياتها أدنى اعتبار.. ومنحها الإسلام حق الموافقة أو الرفض.. إلى غير هذه الحقوق التى منحها الإسلام الحنيف.. إنها رحمة ما بعدها رحمة..!!

ب ـ تحرير الأرقاء.. بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبواب الرق مفتحة على مصراعيها.. فى الجزيرة العربية.. والهند.. وعند فارس.. والرومان.. ومصدره: السطو.. والقوة.. والغلبة.. والسرقة.. والغزو لا لفكرة أو مبدأ.. وإنما لمجرد شهوة الأقوياء فى استعباد الضعفاء

(١) سورة النساء: ١١، ١٢.

واسترقاقهم، والتسلط عليهم، وسلب حرياتهم، وتسخيرهم في الحقول، والأعمال الشاقة، بما يعود على الأقوياء المتغطرسين بحياة الترف، وعيشة البذخ..!

جاء الإسلام وفي كل بيت من بيوت مكة.. آدميون سلبت منهم آدميتهم، وسرقت إنسانيتهم، وأصبحوا يرسفون في أغلال الرق وسلاسل العبودية، ويسخرون تسخير الحيوانات والبهائم تماما..!

جاء الإسلام والديانتان الكبيرتان: اليهودية والنصرانية، تبيحان الرق، وتعترفان به.. جاء وبابه مفتوح على مصراعيه، والمصادر التي تصب فيه شلالات هادرة.. فماذا فعل الإسلام..؟ هل أنشأ رقا جديدا..؟ هل توسع في مصادره..؟ هل فتح له أبوابا أخرى..؟؟

كلا..! وإنما ضيق هذه المصادر، وأغلق الكثير من الأبواب في الوقت الذي فتح فيه منافذ كثيرة ومتعددة تؤدي إلى حرية الأرقاء.. وجعل روافد كثيرة تصب في بحر الحرية..! إي وربي.. هذا ما فعله الإسلام المفترى عليه.. وذاك لون من ألوان الرحمة التي جاء بها نبيه العظيم ـ: محمد ـ صلى الله عليه وسلم..!

لقد بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لرحمة الأرقاء رحمة لا مثيل لها.. جاء ليرد لهم إنسانيتهم، ويعيد إليهم بشريتهم وآدميتهم المسلوبة منهم.. ولك أن تقارن بين قول بولس لأهل أفسيس: (أيها العبيد.. أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح، لا بخدمة العين كمن يرضى الناس، بل كعبيد المسيح) وكذا قول بطرس الرسول: (أيها الخدام.. كونوا خاضعين بكل هيبة للسادة)(١).

وبين قول نبى الرحمة ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حيث يقول عن العبيد، مخاطبا السادة: « **إخوانكم ـ أي: عبيدكم ـ خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم، وليلبسه مما يلبس، ولاتكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم**»(٢).

يالرحمة الإسلام.. ويالسمو تعبير نبى الرحمة ـ صلى الله عليه وسلم ..! بينما يأمر بولس الرسول أهل أفسيس بأن يطيعوا سادتهم بخوف ورعدة، ويناديهم: أيها العبيد.. ولم يوص سادتهم بأدنى كلمة رحمة بهم.. إذ بنا نرى نبى الإسلام محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرفع من شأن

(١) العهد الجديد.

(٢) صحيح البخارى عن المعرور بن سويد.

هؤلاء العبيد، ويجعلهم إخوة للأحرار تماما، بل ويكلف سادتهم بأن يعاملوهم معاملة الأخ لأخيه، وأن لايثقلوا عليهم فى عمل ما ـ إنها رحمة الإسلام العظيم.. التى جاء بها رسول الله محمد إمام الأنبياء وخاتم المرسلين.. صلوات الله وسلامه عليه[1]..! بل ويرفعوا من شأنهم، ويحافظوا على شعورهم كآدميين فيقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«لايقل أحدكم: هذا عبدي.. وهذه أمتي.. وليقل: فتاى.. وفتاتي»**[2].

جـ ـ الاهتمام بالضعفاء.. كان الناس فى الجاهلية غلاظ الطباع، قساة القلوب، لا يرحمون يتيما، ولا يعطفون على فقير، ولايعينون مسكينا على حاجته.. وكان هؤلاء الضعفاء مهضومى الحقوق، مسلوبى الإنسانية والصفات الآدمية، ضائعى الكرامة، مهانين من المجتمع الذى يعيشون فيه، محتقرين ممن يحيطون بهم.

وبعث إمام الإنبياء وخاتم المرسلين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأعاد إليهم إنسانيتهم المعتدى عليها، وآدميتهم المسلوبة منهم، وكرامتهم التى داسها أقوياء وأثرياء مجتمعهم، ورفع من شأنهم، ونفض عنهم غبار الذلة والمهانة، وانتشلهم من وهدة الضياع والهوان..!!

---

(١) يراجع موضوع الأرقاء فى كتابى: طريق النجاة.. ص ١٤٥ ومابعدها.. فهو هناك أكمل وأوفى.

(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد.

لقد اهتم القرآن الكريم، دستور الإسلام الأغر، وقانونه المحكم، ومنهجه القويم بالضعفاء من الناس: اليتيم.. المسكين.. الفقير.. ومَن على شاكلتهم اهتماما لا مثيل له فى الشرائع الأخرى، سواء أكانت شرائع سماوية أو وضعية.. حتى عند هؤلاء الشيوعيين الذى يتباكون على الإنسان ويزعمون أن ثورتهم الحمراء قامت من أجله.. لقد جعلوه ترسا فى آلة.. لا كرامة له، ولا حرية له، وإنما هو ترس فى آلة تدور حيث دارت.. يأكل بقدر ما يعمل.. فإن عجز عن العمل لا يجد ما يأكله..!

إن الاهتمام باليتيم، والفقير، والمسكين، وغيرهم من ذوى الحاجات، والضعفاء، فى نظر الإسلام دين وعبادة، نظفر بالسعادة إن قمنا بها، وبالشقاء إن تهاونّا فيها.

لقد جعل الإسلام الإحسان إلى هؤلاء الضعفاء قرين عبادة الله وعدم الإشراك به شيئا، إذ يقول الحق ـ سبحانه ـ فى محكم كتابه:

﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾(١).

(١) سورة النساء: ٣٦.

كما جعله قرين الإيمان بالله ـ سبحانه ـ وباليوم الآخر، والملائكة والكتب والأنبياء.. وغصنا من أغصان البر الذى يثاب عليه المرء يوم القيامة أحسن مثوبة، يقول ـ سبحانه ـ:

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾(١).

كما جعله سببا مباشرا فى النجاة يوم القيامة، والفوز برضا الله ورضوانه: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾(٢).

وجعل الإساءة إلى هؤلاء الضعفاء من التكذيب بالدين:

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة: ١٧٧.

(٢) سورة البلد: من ١١: ١٦.

(٣) سورة الماعون: من ١: ٣.

ليس هناك مبادئ أرحم بالإنسان من هذه المبادئ.. وليس هناك تعاليم أحرص على خير الإنسان من هذه التعاليم الإلهية.. إنها الرحمة التى جاء بها نبى البر والرحمة.. محمد .. صلى الله عليه وسلم..!!

***

هذه بعض آثار الرحمة التى جاء بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وغيرها كثير وكثير.. لقد انتشل الإنسانية من وهدة الجهالة وعبادة الأصنام والأوثان، وأخرجها من ظلمات الكفر وضلال الشرك إلى نور الهداية والإيمان، وحررها من قيود الطغيان والجبروت والظلم..!

لقد كانت بعثته رحمة للإنسان فى معاشه ومعاده، فى دنياه وأخراه.. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1].

(١) سورة الأنبياء: ١٠٧

وعـــن :

٣ ـ إنسانياته صلى الله عليه وسلم...

يقـــول:

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(١)

لقد كان رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يحمل بين جنبيه قلبا كبيرا، طُبع على الرحمة، وحُشي رأفة، وملئ محبة ومودة.. فلا غرو.. إذن.. أن ينعته ربه ـ عز وجل ـ بهاتين الصفتين: رءوف.. رحيم..!!

كان يشق على نفسه مشقة شديدة، ما يكون فيه تعب لأمته، أو مشقة عليها.. لهذا نراه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يقول: « **إن هذا الدين متين.. فأوغل فيه برفق.. فإن**

(١) سورة التوبة: ١٢٨.

المنبت لا أرضا قطع.. ولا ظهرا أبقي..»[1]، ويقول: **«إن الدين يسر، ولن يُشادَّ الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة**[2]**وشئ من الدلجة**[3]**»**.

ويعلن على قومه جميعا أن التشدد فى غير موضعه، وحمل النفس مالاتطيق من ضروب العبادة، ليس من الدين فى شئ، بل ربما انتهى بصاحبه إلى الهلاك والضياع.. يروى مسلم عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**هلك المتنطعون.**» قالها ثلاثا. أى: هلك المتعمقون المتشددون فى غير موضع التشدد.

وحينما بلغه أن جماعة من أصحابه اختاروا الأمر الصعب فى التقرب إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ فعزم أحدهم على صيام الدهر كله.. والآخر على قيام الليل كله.. والثالث على اعتزال النساء.. غضب ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من أجل عنتهم هذا بأنفسهم، وأعلن للناس أجمعين من فوق منبره الشريف: أن التشدد والتنطع ليس من الدين فى شئ.. حيث قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«أما والله إني لأخشاكم لله.. وأتقاكم له.. لكنى أصوم وأفطر.. وأصلي وأرقد.. وأتزوج النساء.. فمن رغب عن سنتي فليس مني**[4]**»**.

---

(١) رواه البيهقى والحاكم.

(٢) الغدوة: أول النهار، والروحة: آخره، والدلجة: آخر الليل.

(٣) رواه البخارى عن أبى هريرة.

(٤) رواه البخارى عن أنس

لقد كان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يمتنع أحيانا عن أمر أمته بعبادة ما تجنبا للمشقة.. اسمعه يقول: «**لولا أن أشق علي أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة**[1]».

وكان أحايين كثيرة يمتنع..! ـ إشفاقا على أمته ـ عن القيام ببعض العبادات حتى لا تفرض عليها.. فلم يداوم على صلاة التراويح فى المسجد من أجل هذا.. وحينما سأله سائل عن حكم الحج.. أجابه بأنه فرض، لكن.. حينما سأله قائلا: أفى كل عام يارسول الله..؟ سكت ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ولم يجبه حتى كرر السؤال ثلاثا، وهنا قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لو قلت: نعم لوجب، ولما استطعتم.. ذروني ماتركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم علي أنبيائهم، فإن أمرتكم بشئ فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شئ فدعوه**[2]».

***

وكما كان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يعز على نفسه الرحيمة، وقلبه الكبير، كل ما يكون فيه تعب أو مشقة لأمته.. كان كذلك حريصا على هدايتهم، وعلى وصول الخير الدنيوى والأخروى إليهم، لايألو فى ذلك جهدا، ولا

(١) رواه مالك عن أبى هريرة.
(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة.

يدخر وسعا، يستوى فى ذلك عنده القريب والبعيد.. فهذا عمه أبو طالب الذى وقف إلى جواره ينصره ويؤازره، حينما أدركته الوفاة، جاءه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال فى حرص على هدايته: «**ياعم قل: لا إله إلا الله.. كلمة أحاجّ لك بها عند الله..!**»، قال: يا ابن أخى.. قد علمت إنك لصادق، ولكن أكره أن يُقال: خدع عند موته.. فانصرف عنه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى أشد ما يكون حزنا على عدم إعلانه كلمة التوحيد، ليشهد له بها أمام الله يوم القيامة، فنزل حينذاك قول الله تعالى:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾(١).

ويقول ابن إسحق: فلما تقارب من أبى طالب الموت نظر العباس إليه يحرك شفتيه، فأصغى إليه بأذنه، فقال: يا ابن أخى.. والله لقد قال أخى الكلمة التى أمرته أن يقولها.. فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «لم أسمع..!»(٢).

***

(١) سورة القصص: ٥٦.

(٢) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٤٤٣.

ولم يكن حرصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحسب على قريب له، أو على من ناصره وآزره، بل كان حرصه أشد على الناس أجمعين، حتى من آذوه منهم وعذبوه.. فيوم أن ذهب إلى الطائف ليعرض نفسه ودعوته على قبائلها، أخرجه سادتها، وأغروا به العبيد والسفهاء والصبيان، يرمونه بالحجارة، ويقذفونه بها، فرفع وجهه إلى خالقه وبارئه ليبثه شكواه، قائلا: «اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين.. أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تكلنى..؟! إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى..؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى..! ولكنِ عافيتك هى أوسع لى.. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»(١)

وقيل: إن جبريل أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حينئذ وقال: يامحمد.. ربك يقرئك السلام، ويقول لك: إن ملك الجبال رهن إشارتك، فمره بما تشاء، ويقول ملك الجبال: لو أمرتنى أن أحمل عليهم هذين الأخشبين وأطبقهما عليهم لفعلت.. لكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرفع وجهه

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٤٤٦.

إلى ربه ـ سبحانه ـ ويقول: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»، فيقول جبريل: صدق من سماك الرءوف الرحيم..!!

***

وكتاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ يؤكد أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يحزن الحزن كله، ويتألم الألم كله على تولى قومه عن الإيمان، وإعراضهم عن دعوته، وتنكبهم طريق الهداية، حتى وكأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قاتل نفسه أسفا وحزنا عليهم، يقول ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾(١).

ويدخل فى باب حرصه على هداية قومه ما حكاه البعض على أنه عتاب من الله لحبيبه محمد.. ولكنه فى الحقيقة وسام شرف وفخار، وضعه العزيز الحكيم ـ سبحانه ـ على جبينه.. أعنى ما جاء فى قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠

(١) سورة الكهف: ٦.

كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴾[1].

أجل.. ! أعرض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ابن أم مكتوم، هذا الرجل الأعمى.. لكن.. ماكان إعراضه وتوليه عنه تعاليا أو تكبرا.. ! وعبَّس وجهه.. وما كان ذلك تبرما به.. وضيقا منه.. كلا.. كلا.. ! وإنما كان ذلك كله حرصا منه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ على هداية صناديد قريش، ونزع ذلك الرين الذي ران على قلوبهم، حتى يروا نور الإيمان، ويبصروا الحقيقة.. رجاء أن يسلموا ويسلم بإسلامهم مَن وراءهم.. لهذا وحده كان إعراض الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك الأعمى وتوليه.. !!

(١) سورة عبس من ١ : ١١.

وعـــن:

٤ ـ أخلاقه صلى الله عليه وسلم...

يقـــول:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(١)

إن جوانب عظمة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كثيرة ومتعددة، ومنشأ عظمته: خلقه.. هذا الذى وصفه رب العالمين ـ عز وجل ـ فى محكم كتابه: بأنه عظيم.

وإذا رحنا نتساءل عن هذا الخلق العظيم الذى كان يتحلى به إمام الأنبياء وخاتم المرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لوجدنا الجواب الشافى عند أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ فيما رواه مسلم عن سعيد بن هشام ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: «قلت: ياأم المؤمنين.. أنبئينى عن خلق رسول الله ـ

---

(١) سورة القلم: ٤

صلى الله عليه وسلم ـ . . ؟، فقالت: ألست تقرأ القرآن . . ؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان القرآن».

وفيما جاء فى القرطبى: وسئلت أيضا ـ أى: أم المؤمنين عائشة ـ عن خلقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقرأت ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾(١) إلى عشر آيات، وقالت: ماكان أحد أحسن خلقا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما دعاه أحد من الصحابة ولا من أهل بيته إلا قال: لبيك، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(٢).

والحق الذى لا مراء فيه . . أنه لم يذكر خلق محمود إلا وكان للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ منه الحظ الأوفر، وما كان خلقه عظيما إلا لاجتماع مكارم الأخلاق فيه . . وكيف . . لا . . ؟ وقد بعث ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليقيم دولة الأخلاق الفاضلة فى دنيا الناس، ويرسى قواعدها على أسس من هدى الله وتعاليمه السمحة، ومبادئه السامية . . !، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»(٣).

---

(١) سورة المؤمنون: ١.

(٢) سورة القلم: ٤.

(٣) رواه مالك فى موطئه.

إن خلقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا الذى وصف بأنه عظيم، ثمرة أدب ربانى، وتربية إلهية حكيمة.. يقول[1] عنها نفسه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: «**أدبني ربي تأديبا حسنا إذ قال:**

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[2]

فلما قبلت ذلك منه، قال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[3].

لقد كان هذا الخلق العظيم تطبيقا عمليا صادقا وأمينا، للقرآن الكريم.. إذ كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى سلوكه.. وأخلاقه.. فى حركاته وسكناته.. فى فعله وتركه.. فى أمره ونهيه.. فى رضاه وغضبه.. فى حربه وسلمه.. مثلا حيا للقرآن الكريم.. ولن نكون مبالغين إذا قلنا: إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان الوجه المرئى والمشاهد، والمحسوس والملموس للقرآن الكريم.. إن الصفحة الأولى من القرآن هى ذلك الهدى الإلهى المكتوب فى المصحف.. والصفحة الثانية والأخيرة منه هى ذلك السلوك المحمدى القويم..!!

---

(١) ذكره القرطبى.

(٢) سورة الأعراف: ١٩٩.

(٣) سورة القلم: ٤

ومن ثم.. حق لأم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن تقول: «**كان خلقه القرآن**».. واستحق هذا الخلق أن يوصف بأنه: «عظيم».. وكان صاحبه ـ بحق ـ المثل الأعلى للإنسان الكامل..!!

***

لقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يملك ناصية الأخلاق الحميدة، ويتربع على عرش الفضيلة، وكان دائما فى كل جانب من جوانب الأخلاق يضرب المثل من نفسه.. كان حليما.. صبورا.. شجاعا.. مقداما.. كريما جوادا.. رءوفا رحيما.. إلى غير ذلك من صفات الكمال.

وحسبنا ـ هنا ـ أن نتدارس بعض هذه الصفات لنرى أثرها فى نشر دعوته، وإليك نماذج منها:

أ ـ حلمه.. صلى الله عليه وسلم:

لقد بلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى صفة الحلم حد الكمال، وكان فيها مضرب الأمثال.. وكيف.. لا..؟ وقد أدبه ربه ـ سبحانه وتعالى ـ بمثل قوله:

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(١).

يقول القرطبى: لما نزلت هذه الآية الكريمة سأل رسول

(١) سورة الأعراف: ١٩٩

الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ جبريل عن تأويلها..؟ فقال جبريل ـ عليه السلام ـ له: حتى أسأل العليم ـ أى: الله عز وجل ـ ثم ذهب وأتاه فقال له: يامحمد.. إن الله يأمرك أن تصل من قطعك.. وتعطى من حرمك.. وتعفو عمن ظلمك».

لهذا.. كان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ دائما يكظم غيظه، ويسيطر على نفسه وقت الغضب، ويقابل الإساءة بالعفو والصفح الجميل.. يروى الإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها ـ أنها قالت: **«لم يكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا في الأسواق ولا يجزي بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويصفح»**.

وإذا تركنا كلام أم المؤمنين عائشة ـ رضوان الله عليها ـ عن حلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جانبا، ورحنا نبحث عن التطبيق العملى من سلوك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لوجدنا لذلك صورا عديدة:

أ ـ يروى أحمد عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: كنت أمشى مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية، فأدركه أعرابى فجبذه جبذة حتى رأيت

صفحة عنق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، فقال: يامحمد.. أعطنى من مال الله الذى عندك، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء».

ب ـ يروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: حدثنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوماً ثم قام فقمنا، فنظرت إلى أعرابى قد أدركه فجبذه بردائه فحمر رقبته، وكان رداؤه ـ صلى الله عليه وسلم ـ خشنا فالتفت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له الأعرابى: احمل لى على بعيرى هذين، فإنك لا تحمل لى من مالك ولا من مال أبيك.. فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«لا.. وأستغفر الله ـ كررها ثلاثاً ـ لا أحمل لك حتى تقيدنى[1] من جبذتك التى جبذتنى»**.. فكل ذلك يقول له الأعرابى: والله لا أقيدكها، فلما سمعنا قول الأعرابى أقبلنا إليه سراعا، فالتفت إلينا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: **«عزمت على من سمع كلامى ألا يبرح مكانه حتى آذن له»**، ثم دعا رجلا، فقال له: **«احمل له على بعيريه هذين.. على بعير شعيرا، وعلى الآخر تمرا»**. ثم التفت إلينا ثم قال: **«انصرفوا على بركة الله..!!»**

(١) أى: تمكننى من أن أقتص منك بمثلها.

جـ ـ يروى البخارى ومسلم عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال: لما كان يوم حنين آثر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ناسا فى القسمة: فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة بن حصن مثل ذلك، وأعطى ناسا من أشراف العرب وآثرهم يومئذ فى القسمة[1]، فقال والله إن هذه قسمة ما عُدِلَ فيها وما أريد فيها وجهُ الله، فقلت: والله لأخبرن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأتيته فأخبرته بما قال فتغير وجهه حتى كان كالصِّرْف[2]، ثم قال: **«فمن يعدل إذا لم يعدل اللهُ ورسوله..؟، ثم قال: «يرحم الله موسي.. قد أوذي بأكثر من هذا فصبر..!!»**

أرأيت معى إلى أى حد بلغ حلمه ـ صلى الله عليه وسلم ..؟! لقد أُوذى إيذاء كثيرا، مرات عديدة بالفعل، ومرات أكثر بالقول، وكل مرة منها كان لها وقع قاس بل بالغ فى القسوة على النفس، لكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كل مرة ـ مهما كان وقعها على نفسه ـ يقابل الإساءة بالإحسان، وبصبر جميل..!!

---

(١) ما فعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك إلا تألفا لقلوب هؤلاء فقد كانوا يحتاجون إلى ما يثبت إيمانهم.

(٢) الصِّرف: صبغ أحمر.

ويشير عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إلى هذا السلوك الذى لم ولن يضارعه سلوك إنسان ما.. فيقول فى كلامه عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «بأبى أنت وأمى يارسول الله..! لقد دعا نوح على قومه فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾[1] ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا من عند آخرنا.. فقد وطئ ظهرك، وأدمى وجهك، وكسرت رَبَاعِيَتُك[2]، فأبيت أن تقول إلا خيرا، فقلت: اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون..![3]»

يقول القاضى عياض تعقيبا على حديث عمر ـ رضى الله عنه ـ: انظر هذا القول من جماع الفضل، ودرجات الإحسان، وحسن الخلق، وكرم النفس، وغاية الصبر والحلم، إذ لم يقتصر ـ صلى الله عليه وسلم ـ على السكوت عنهم حتى عفا عنهم، ثم أشفق عليهم ورحمهم، ودعا وشفع لهم، فقال: «اغفر أو اهد»، ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله: «لقومى»، ثم اعتذر بجهلهم، فقال: «فإنهم لا يعلمون[3]..!»

---

(١) سورة نوح: ٢٦.

(٢) هى السِّنَّةُ التى بين الناب والثَّنِيَّتَيْنِ.

(٣) الشفاء للقاضى عياض.

أ ـ أثر حلمه صلي الله عليه وسلم:

لقد كان لحلمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أثر عظيم فى نشر دعوته، ودخول الناس دينه الذى يدعو إليه.. والحق الذى لا مرية فيه.. أن الإسلام لم ينتشر بحد السيف، وما دخل الناس فى دين الله أفواجا بدافع الخوف من رسول الله، أو الرهبة من سيوف أصحابه، كما يزعم ذلك بعض المضللين من المستشرقين، والمغرضين من أعداء الإسلام الحنيف ودعوته.. وإنما انتشر الإسلام بقوة إقناعه، ووضوح حجته، ونصاعة مبادئه، وسماحة تعاليمه.. انتشر كذلك بعظمة أخلاق الداعية العظيم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولين جانبه، وجامٍ تواضعه.. روى الحاكم عن زيد بن سعنة ـ وهو أجل أحبار اليهود الذين أسلموا ـ أنه قال: لم يبق من علامات النبوة شئ إلا وقد عرفته فى وجه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه.. أن يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، فكنت أتلطف لأن أخالطه فأعرف حلمه وجهله، فابتعت منه تمرا إلى أجل، فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه، ونظرت إليه بوجه غليظ، ثم قلت: ألا تقضينى يامحمد حقى..؟ فوالله إنكم يابنى

عبد المطلب مطل.. فقال عمر: أى عدو الله..! أتقول لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما أسمع..؟؟ فوالله لو ما أحاذر فوته لضربت بسيفى رأسك.

ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينظر إلى عمر فى تؤدة وسكون ثم تبسَّمَ، وقال: **«أنا وهو أحوج إلى غير هذا.. أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التَّباعة(١) .. اذهب ياعمر فاقضه حقه وزده عشرين صاعا من تمر مكان ما روَّعته»**.

فقلت: ما هذا..؟ قال عمر: أمرنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن أزيدك مكان منازعتك، فقلت: أتعرفنى ياعمر..؟ قال: لا.. فمن أنت..؟ قلت: أنا زيد بن سعنة، قال: الحبر..؟؟ قلت: الحبر. قال: فما دعاك أن تفعل برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مافعلت..؟ وتقول له ما قلت..؟، قلت: ياعمر.. إنه لم يبق من علامات النبوة شئ إلا وقد عرفته فى وجه محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه: أن يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، فقد اختبرته منه، فأشهدك ياعمر أنى رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا، وأشهدك أن شطر مالى لله ـ

---

(١) أى: الطلب.

فإنى أكثرها مالا ـ صدقة على أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال عمر: أو على بعضهم فإنك لاتسعهم كلهم، قلت: أو على بعضهم، قال: فرجع عمر وزيد بن سعنة إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال زيد: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، فآمن به وصدقه وبايعه وشهد معه مشاهد كثيرة.

واضح من هذه القصة أن الرجل لم يدخل الإسلام خوفا من السيوف، أو هروبا من القتل، وإنما دخله تأثرا بخلق محمد العظيم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد كان لحلمه من الأثر ماليس للسيف، حتى إن الأعرابى الجلف كان يقدم عليه من البادية، فيجلس إليه بعض الوقت، وهو أشد الناس عليه حقدا، وأكثرهم له عداوة، وأحرصهم على النيل منه.. فلم يقم من مجلسه ذلك إلا وهو أشد الناس حبا له ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأحرصهم على التضحية بنفسه وماله بل وبكل ما يملك من أجله ومن أجل دعوته.. لم يغدق عليه محمد مالا، ولم يمنه الأمانى.. بل إنه كان يعلم علم اليقين أنه بإسلامه هذا سيكون هدفا لأعداء محمد ودعوته، وما أكثرهم حينذاك.. لم يكن هذا إلا أثرا من آثار خلقه العظيم ـ صلوات الله وسلامه عليه..!

ب ـ تواضعه صلي الله عليه وسلم:

لم يع التاريخ فى أى فصل من فصوله أروع ولا أعظم من تواضعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقد كان يمثل حاكم الأمة، ورئيس الدولة، وإن كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ أجل من أن ينعت برئيس، وأعظم من أن يوصف بحاكم، ومع هذا.. فقد كانت علاقته بمن حوله من الأصحاب والأتباع علاقة الأخ بأخيه.. أو الصاحب بصاحبه.. علاقة الند بقرينه.. كان يجالس فقيرهم، ويعود مريضهم، ويعين من هو فى حاجة إلى عونه، ويواسيهم فى مصابهم، ويشاركهم أفراحهم.. فإذا اجتمعوا لنفاذ أمر ما كانت المساواة التامة ترفرف عليهم.. يفعل ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثلما يفعل أقلهم، ويتحمل من المشاق مثلما يتحمل سائرهم، ولايتميز عنهم فى أمر من الأمور.. روى أنه كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى سفر، فأمر أصحابه بإصلاح شاة، فقال رجل: يارسول الله.. علىَّ ذبحها، وقال آخر: علىَّ سلخها، وقال ثالث: علىَّ طبخها، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**وعلىَّ جمع الحطب**».. فقالوا: يارسول الله.. نحن نكفيك العمل. فقال: «**علمت أنكم تكفونني العمل.. ولكن أكره أن أتميز عليكم.. وإن الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه..!!**».

هانحن أولاء.. نرى أن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد شارك أصحابه فى إعداد الطعام، ولم يتميز عنهم فى شئ ما.. بل إننا نراه يختار أشق مراحل العمل، ويتحمل أصعب الأمور، ويعجب أصحابه من سلوكه هذا المتناهى فى باب التواضع، ويقولون له: كيف تكون سيدنا وعظيمنا وتفعل مثلما نفعل تماما..؟ إننا نتحمل عنك كل شئ.. نحن نكفيك العمل..! ولكنه ـ وهو العظيم حقا ـ يأبى إلا أن يكون مثلهم.. بل يضع دستورا لأتباعه من بعده فى المساواة فيقول: «**إن الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه**».

لقد كان من كمال تواضعه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مارواه الإمام أحمد والبيهقى: «أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ خير بين أن يكون نبيا ملكا، أو نبيا عبدا فاختار أن يكون نبيا عبدا، فقال له إسرافيل عند ذلك: فإن الله قد أعطاك بما تواضعت له.. أنك سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع».

ومن تواضعه.. تأكيده الدائم على عبوديته لله ـ سبحانه وتعالى ـ وتحذير أمته من أن ترفع قدره عن قدر البشرية قيد أنملة.. يروى الإمام أحمد عن عمر ـ رضى الله عنه ـ أن

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**لاتطروني**[1] **كما أطرت النصاري عيسي بن مريم ـ عليه السلام ـ فإنما أنا عبد الله ورسوله**».

وكثيرا ماكان ينهى أصحابه عن مناداته ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما يشعر بتعظيمه، ورفع قدره فوق قدرهم ـ وإن كان هو صلوات الله وسلامه عليه ـ سيد الثقلين، وإمام الأنبياء، وخاتم المرسلين، وحبيب رب العالمين... يروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أن رجلا قال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ياسيدنا ويا خيرنا وابن خيرنا، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**أيها الناس.. قولوا بقولكم ـ أي: بما تعرفون فيّ كقولكم في التشهد: وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ـ ولا يستهوينكم الشيطان.. أنا محمد بن عبد الله، ورسوله.. والله ما أحب أن ترفعوني فوق مارفعني الله عز وجل**».

كما كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينهاهم عن كل سلوك ينم عن تكريمه أو تعظيمه.. روى أبو داود عن أبى أمامة الباهلى ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: خرج علينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ متوكئا على عصا، فقمنا له تعظيما وتكريما، فقال: «**لاتقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا**»،

(١) لا تمدحونى ولا تعظمونى.

ثم قال: «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد».

وتواضع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن مجرد تظاهر بالتواضع بل كان سجية من سجاياه الحميدة، وغريزة من غرائزه الطيبة القويمة.. كان تواضعا مع الناس.. ومع العبيد والخدم.. ومع أهله فى بيته.. يروى الإمام أحمد أن عائشة ـ رضى الله عنها ـ سئلت: ماكان يصنع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بيته..؟؟، فقالت: «كما يصنع أحدكم: يخصف نعله، ويخيط ثوبه. وقالت مرة: كان يكون فى مهنة أهله».. ويروى الإمام أحمد عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: «إن كانت الأمة لتأخذ بيد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتنطلق به فى حاجتها».

ومن كمال تواضعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه كان يركب الحمار مع قدرته على ركوب الفرس والبغل والناقة، وكان يردف[1] خلفه، ويعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبد، ويجلس بين أصحابه مختلطا بهم، بل ويجلس حيث انتهى به المجلس.[2]

(١) يركب البعض وراءه على الدابة.
(٢) شرح الشفا للخفاجى المصرى.

جـ ـ كرمه وسخاؤه صلى الله عليه وسلم:

لقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ أجود بالخير من الريح المرسلة، يعطى عطاء من لا يخشى الفقر، يؤثر غيره على نفسه وآل بيته، فيعطى ولو كان فى أمس الحاجة إلى ما أعطى. . يروى البخارى ومسلم عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال: **«كان النبي ـ صلي الله عليه وسلم ـ أجود الناس بالخير، وأجود ما كان في شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل ـ عليه السلام ـ أجود بالخير من الريح المرسلة»**.

جاء فى القرطبى والبيضاوى. . عن جابر ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: بينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالس أتاه صبى، فقال: إن أمى تستكيك درعا، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«من ساعة إلي ساعة فعد إلينا»** فذهب إلى أمه فقالت: قل له: إن أمى تستكيك الدرع الذى عليك، فدخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ داره، ونزع قميصه وأعطاه إياه، وقعد عريانا، وأذن بلال، وانتظروه للصلاة فلم يخرج، فأنزل الله تعالى قوله:

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾(١)

(١) سورة الإسراء: ٢٩.

ثم سلاه بقوله:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾(١).

هكذا.. كان كرم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا حدود له.. وكان لا يبارى فى الجود والسخاء.. كانت هذه حاله حتى قبل أن يبعث.. تقول أم المؤمنين خديجة ـ رضى الله عنها ـ له يوم بعثته: **«والله لا يخزيك الله أبدا.. إنك لتصل الرحم.. وتصدق الحديث.. وتحمل الكَلَّ(٢)، وتكسب المعدوم(٣)، وتقري(٤) الضيف، وتعين علي نوائب الحق»**(٥).

وكم كان كرمه يكلفه الكثير من الجهد والمشقة..! إذ كان لايرد سائلا بدون عطاء، حتى ولو لم يكن عنده شئ فإنه يقترض له ويعطيه، أو يطلب من السائل أن يبتاع ما يريد من تجار المدينة على أن يدفع ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثمن ما يشترى.. فلقد جاءه رجل فسأله، فقال: **«ماعندي شئ.. ولكن ابتع عليَّ، فإذا جاءنا شئ قضيناه»**، فقال له عمر ـ رضى الله

(١) سورة الإسراء: ٣٠.

(٢) الضعيف.

(٣) تعطى الفقير.

(٤) تكرم الضيف.

(٥) سيرة ابن هشام.

عنه ـ: ما كلفك الله مالا تقدر عليه، فكره النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك، فقال له رجل من الأنصار: يارسول الله.. أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا، فتبسم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعُرف البِشر فى وجهه، وقال: **«بهذا أمرت»**[1].

* أثر كرمه صلى الله عليه وسلم:

وكما كان لحلمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أثر عظيم فى دخول الناس فى دين الله ـ عز وجل ـ فقد كان لكرمه ووده وسخائه جاذبية قوية، جذبت الكثير والكثير إلى الإسلام الحنيف، وإلى الداعية العظيم نفسه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وإليك بعض هذه الصور الدالة على ذلك:

أ ـ يروى مسلم عن أنس ـ رضى الله عنه ـ: «أن رجلا سأله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأعطاه غنما بين جبلين، فرجع إلى بلده... وروى لقومه ما رآه من سخاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم.. وقال لهم: أسلموا.. فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفقر..!!

ب ـ يروى الإمام أحمد عن صفوان بن أمية ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: «أعطانى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

(١) رواه الترمذى فى الشمائل.

يوم حنين وإنه لأبغض الناس إلىَّ، فما زال يعطينى حتى صار وإنه لأحب الناس إلىَّ».

جـ ـ يروى الإمام أحمد عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: «إن كان الرجل ليأتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يريد إلا أن يصيب عرضا من الدنيا = أو قال: دنيا يصيبها = فما يمسى من يومه ذلك حتى يكون دينه أحب إليه = أو قال: أكبر عليه = من الدنيا وما فيها..!».

***

وإذا كانت أعلى مراتب الجود هى: أن يؤثر الإنسان على نفسه وأولاده وأهله.. فقد بلغ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ذلك.. المنزلة السامية، التى لم يبلغها بشر كائنا من كان.. يروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد الساعدى ـ رضى الله عنه ـ أن امرأة أتت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ببردة منسوجة فيها حاشيتاها، قال سهل: هل تدرون ما البردة..؟، قالوا: نعم.. الشملة، قال: نعم، فقالت: يارسول الله.. نسجت هذه بيدى فجئت بها لأكسوكها، فأخذها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ محتاجا إليها، فخرج علينا وإنها لإزاره، فحسها فلان = قيل: إنه سعد بن أبى وقاص = فقال: ما أحسن هذه البردة.. أكسنيها يارسول

الله . . ! ، قال : نعم . فلما دخل ـ صلى الله عليه وسلم ـ طواها وأرسل بها إليه ، فقال له القوم : والله ماأحسنت ، كُسيَها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ محتاجا إليها ، ثم سألته إياها = وقد علمت أنه لا يرد سائلا = فقال : والله إنى ما سألته لألبسها ، ولكن سألته إياها لتكون كفنى يوم أموت . . قال سهل : فكانت كفنه يوم مات» .

***

هذه نماذج ثلاثة من أخلاقه ضربناها مثلا ، لنرى على ضوئها . . كم كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما وصفه ربه على خلق عظيم . . !!

وعـــن:

٥ ـ حفظ الله له ورعايته صلي الله عليه وسلم

يقـــول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(١)

يخاطب رب العالمين ـ عز وجل ـ فى هذا القول الكريم نبيه ورسوله وصفوته من خلقه محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ آمرا إياه أن يبلغ ما أوحاه إليه من شرعه القويم، وهديه الحكيم إلى الناس كافة أبيضهم وأسودهم، عظيمهم وحقيرهم، العربى منهم والأعجمى.. وألا يكتم شيئا ما مما أوحاه إليه.. وألا يخص إنسانا دون غيره.

---

(١) سورة المائدة: ٦٧.

ثم يبين ـ سبحانه وتعالى ـ أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن كتم شيئا، أوخص إنسانا دون غيره = وحاشاه صلوات وسلامه عليه أن يفعل ذلك = فإنه حينئذ لا يكون مبلغا رسالة ربه على الوجه الأكمل وكما ينبغي له أن يفعل..

يروى مسلم عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت: « من حدثك أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتم شيئا من الوحى فقد كذب، والله تعالى يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾(١)

وقبح الله الروافض حيث قالوا: إنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتم شيئا مما أوحى الله إليه كان بالناس حاجة إليه».

ويقول القرطبي: دلت الآية على رد قول من قال: إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتم شيئا من أمر الدين تقيةً(٢)، وعلى بطلانه، وهم الرافضة، ودلت على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يسر إلى أحد شيئا من أمر الدين؛ لأن المعنى ـ بلغ جميع ما أنزل إليك ـ ظاهر، ولولا هذا ما كان في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ فائدة. اهـ.

***

(١) سورة المائدة: ٦٧.

(٢) تقية: اتقاء لأذى الناس واجتنابا له.

ثم يخبر ـ سبحانه وتعالى ـ حبيبه محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه سيكف أيدى الناس عنه، وسيرد كيد أعداء الإسلام إلى نحورهم، فلا يتخوف من بطش الطغاة المتكبرين، أو عدوان الكفار المتحمسين لقتله، الحريصين على التخلص منه.. ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[1] أى: يحفظك من أذاهم، فلا تمتد إليك يد بسوء، أو يصل إليك أحد منهم فيتمكن منك ويقضى عليك.. كلا.. كلا..! إنه ـ سبحانه وتعالى ـ يحرسك ويرعاك ويحفظك، فلا تبتئس لهذه العداوات الكثيرة، ولا تهتم بكثرة الشانئين لك، الكارهين لدعوتك.. يروى مسلم فى صحيحه بسنده عن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت: سهر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مَقْدَمَه[2] من المدينة ليلة، فقال: «ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى الليلة..؟؟!، قالت: فبينا نحن كذلك سمعنا خشخشة[3] سلاح، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «من هذا..؟» قال: سعد بن أبى وقاص..، فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «ماجاء بك..؟» فقال: وقع فى نفسى خوف على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ـ

(١) سورة المائدة: ٦٧.

(٢) فى أول قدومه إلى المدينة.

(٣) صوت سلاح يصطدم بعضه ببعض.

صلى الله عليه وسلم ـ ثم نام.. ونزلت هذه الآية، فأخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأسه من قبة أدم، وقال: «**انصرفوا.. أيها الناس، فقد عصمنى الله**».. قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك؛ لأن حذيفة كان قد انضم إلى سعد فى غير رواية مسلم.

* عداوات شرسة تحيط به صلى الله عليه وسلم:

يحدثنا التاريخ أنه مامن نبى من الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ إلا وعاداه قومه وحاولوا القضاء عليه وعلى دعوته.. فها هو ذا خليل الرحمن إبراهيم ـ عليه السلام ـ يلقى به أعداؤه فى النار المشتعلة محاولين موته حرقا، لكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ نجاه من الهلاك، وخرج من نارهم سليما معافى.. وهذا روح الله وكلمته عيسى بن مريم يحاول أعداؤه من اليهود صلبه وقتله، فيلقى الله ـ سبحانه ـ شبهه على مَن وشى به، فيصلب هو ويقتل، ويرفع عيسى ـ عليه السلام ـ إلى السماء..!

وكثيرا ما استطاع أعداء الأنبياء النيل منهم، والقضاء عليهم، وبنو إسرائيل ـ اليهود ـ ضربوا الرقم القياسى فى قتل أنبيائهم، حتى استحقوا بجدارة لعنة الله ـ سبحانه ـ واستوجبوا بأفعالهم الذميمة غضبه وانتقامه، واستحقوا أن يوسموا بسمة: قتلة الأنبياء..!، مصداقا لقوله ـ عز وجل ـ:

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾(١).

وبمقدار ماكان لرسول الله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من منزلة ومكانة ـ وبمقدار عموم رسالته وشمولها.. وكونها ناسخة للأديان كلها.. وممتدة إلى آخر الدهر..! بمقدار ماكان له ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أعداء..!!

لقد كانت عداوة كل نبى من الأنبياء قبله من قومه خاصة.. أما هو.. فقد تعددت العداوات بالنسبة إليه.. لقد عاداه قومه الأقربون والأبعدون.. وعاداه أهل الكتابين قبله.. اليهود والنصارى.. وعاداه الوثنيون من عبدة النار والأوثان.. وكان المتنفس الطبيعى لهذه العداوات الشرسة كلها هو قتله والتخلص منه، ليقضوا بالتالى على دعوته.

وكان اليهود أشد الناس عداوة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأحرصهم على قتله والتخلص منه، فمنذ أن بزغ كوكب التوحيد، وأشرقت شمس محمد فى رحاب مكة، وهم يحاولون قتله والقضاء عليه.. حاولوا ذلك وهو طفل صغير.. وحاولوه وهو نبى مرسل.. لكنهم لم

(١) سورة البقرة: ٦١.

ينجحوا فى شئ من ذلك.. إذ سبق القضاء بعصمته من الناس، مصداقا لقوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾(١).

أجل..! كان بنو إسرائيل قتلة الأنبياء..! فقد تطاولوا على رسل الله وأنبيائه، وسفكوا دماءهم الزكية..قتلوا نبى الله شعياء.. ونبى الله زكريا.. أما نبى الله يحيى فقدكان دمه الزكى الطاهر هدية رخيصة لفتاة يهودية عاهرة فاتنة، اسمها: استير(٢)..! قدمها ملك مغرور فاجر ليحظى برضاها ويفوز بليلة حمراء معها..!!

لقد كان دم نبى الله يحيى ـ عليه السلام ـ عربون فجور وفسق، جرَّ على بنى إسرائيل الخراب والدمار، وصُب عليهم من أجله غضب الله ونقمته.. حيث جعل ـ سبحانه ـ الدم الزكى يفور ويفور ولم يهدأ حتى قُتِلَ عليه من بنى إسرائيل عشرات الآلاف.. وغير هؤلاء الأنبياء الكرام الذين أُريقت دماؤهم الزكية الطاهرة.. كثير وكثير..!!

وكما تعرض الأنبياء والمرسلون للقتل، تعرض كذلك له سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرات ومرات،

---

(١) سورة المائدة ٦٧.

(٢) ومع فسقها وفجورها رفعها اليهود إلى مصاف القديسين، ولهم عيد يسمونه باسمها.

لقد حاول المشركون واليهود قتله والتخلص منه، حاولوا ذلك مجتمعين، وحاولوه منفردين.. لكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ كتب له السلامة والعافية والنجاة فى كل مرة؛ لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ تكفل برعايته، وحمايته، وحفظه، وعصمته من الناس..!

***

ونستطيع أن نتبين صدق ذلك على ضوء ما يأتى من أحداث:

١ ـ اجتمعت كلمة كفار قريش على قتله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإراقة دمه الشريف بيد شبابهم، حيث يجتمعون عليه حين خروجه لصلاة الفجر فيضربونه جميعا ضربة رجل واحد.. لكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخرج من بينهم وهم لا يشعرون(١)..!

٢ ـ تملك الغيظ أهل مكة لخيبتهم فى القضاء عليه أمام بيته، ولخروجه من بينهم.. فراحوا يبحثون عنه فى كل مكان.. وأحاطوا بالغار الذى يختبئ فيه، ولو مدَّ واحد منهم يده بسيفه داخل الغار لناله وصاحبه.. لكن الله ـ تعالى ـ أيده بجنود لم يرها ولم يعرفها أحد من الناس...!

(١) سيرة ابن هشام بتصرف وإيجاز.

٣ ـ تعقبه سراقة بن مالك طمعا فى نيل جُعل قريش السخى «مائة ناقة».. حتى إذا ما كان منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قاب قوسين أو أدنى.. رُدَّ على عقبه مقهورا عاجزا..!

٤ ـ ذهب ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى حى بنى النضير، ليستعين بهم على دفع دية رجلين من قريش.. فانتهزوها فرصة وأجلسوه ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو ومن معه تحت جدار، ثم صعد منهم جماعة فوق سطحه ليلقوا عليه صخرة عظيمة فيقتلوه ويتخلصوا منه.. لكن الله ـ سبحانه ـ يوحى إليه بمكرهم وتدبيرهم.. ويأمره بالانصراف من هذا المكان.. فنهض[1] ونجا..!

٥ ـ أهدت إليه يهودية شاة مسمومة.. فرفع الذراع لينهس[2] منها.. فأنطقها الله ـ سبحانه ـ فقالت: «لا تأكل منى يامحمد فإنى مسمومة..!».

٦ ـ رقد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عودته من غزوة ذات الرقاع تحت شجرة، وعلق سيفه عليها، فجاء أعرابى كان يتعقبه، واخترط السيف، ورفعه، وقال: من يمنعك منى

---

(١) المصدر السابق.

(٢) نَهَسَ مثل نَهَشَ لفظا ومعنى.

يامحمد..؟ فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «الله..!» فوقع السيف من يده[1]..!

هذه الأحداث التى سجلها التاريخ وغيرها.. خير شاهد على صدق ما جاء فى قوله تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾[2]..!

(١) المصدر السابق.

(٢) سورة المائدة ٦٧.

obeikandl.com

وعـــن:

٦ ـ عبادته.. صلى الله عليه وسلم...

يقـــول:

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾(١)

كان المشركون يؤذون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالفعل وبالقول.. فكانت أيديهم الآثمة تمتد إليه بالأذى والسوء.. يضعون الشوك والقاذورات فى طريقه وهو خارج لصلاته بالمسجد الحرام.. ويلقون القاذورات على ظهره وهو ساجد عند الكعبة.. وربما تجرأ السفهاء منهم فألقوا التراب على رأسه ووجهه..!!

---

(١) سورة الحجر من ٩٧: ٩٩.

أما ألسنتهم القذرة.. فكانت تتطاول على مقامه العظيم.. وتتقول عليه بما ليس فيه.. فهم يهزأون به.. ويسخرون منه.. فإذا رأوه قادما، قالوا: هذا ابن أبى كبشة الذى يتكلم من السماء.. ثم يرمونه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما هو منه براء.. فيقول قائلهم: إنه ساحر.. كاهن.. كذاب.. إلى آخر هذه القائمة المفتراة، والتى فندها القرآن الكريم، ونفاها نفيا قاطعا فى مثل قول الله ـ عز وجل ـ:

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾(١).

وكان لذلك وقع أليم على نفسه الصادقة الصافية، وحسه المرهف، وقلبه المفعم بالحب لهم جميعا، وبالحرص على هدايتهم، وإيصال الخير الدنيوى والأخروى إلى كل واحد منهم.. فأمره رب العالمين ـ سبحانه وتعالى ـ أن يتغلب على هذه المتاعب النفسية بالإكثار من ذكره ـ عز وجل ـ والإقبال

(١) سورة الحاقة، من ٣٨، ٤٧.

على عبادته، وأن يداوم على هذه الحالة حتى يأتيه «اليقين»[1] . . . ففى ذكره ـ سبحانه . . اطمئنان للقلوب . . وفى عبادته . . أنجح علاج لجراح النفوس . . !

وصدق الله العظيم . . ! فلقد كان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لا يجد سعادة نفسه، وحياة قلبه، ونعيم روحه، وقرة عينه فى شئ مثلما يجده فى موقف واحد من مواقف عبادته لله ـ سبحانه وتعالى ـ يقف بين يديه فى ليل أو نهار . . بعد طول عناء . . أو تعرض لأى نوع من الإيذاء . . يتضرع إليه . . ويدعوه ويناجيه فيجد على الفور راحة قلبه . . وهدوء نفسه . . !

لهذا . . يقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه الإمام أحمد عن أنس ـ رضى الله عنه ـ: «**حبب إليّ من دنياكم الطيب والنساء . . وجعلت قرة عيني في الصلاة**» .

وكثيرا ما كان يقول لبلال ـ رضى الله عنه ـ: «**قم يابلال فأرحنا بالصلاة . . !!**»[2] . . أجل . . ! لقد كان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إذا حزبه أمر لجأ إلى الصلاة . . فيجد فيها طب فؤاده . وعلاج نفسه، وراحة وهدوء قلبه . . ! ! .

---

(١) قيل: هو الموت، وقيل: غَير ذلك .

(٢) رواه أحمد ـ الفتح الربانى .

* تعبده صلى الله عليه وسلم:

الغاية من خلق الإنسان أن يكون عابدا لله ـ عز وجل ـ ولقد نطق بذلك كتاب الله ـ سبحانه ـ:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾(١).

وأسمى مايصبو إليه المؤمن الكامل أن يكون عبدا لله، وحينما يصل إلى هذه المنزلة السامية الرفيعة، منزلة العبودية الخالصة لله.. يكون حينئذ قد تحرر من كل شئ.. تحرر من الكفر والشرك.. تحرر من المذلة والخضوع والخوف إلا لله ومن الله..! تحرر أيضا من سيطرة الدنيا، وفتنة المال والمنصب والجاه..!

والقرآن الكريم حينما ذكر الأنبياء والمرسلين ـ صلوات ربى وسلامه عليهم أجمعين ـ فى معرض الثناء والمدح.. إنما وصفهم بأنبل الصفات وأكرمها.. بالعبودية الخالصة لله ـ عز وجل ـ فها هو ذا كتاب الله ـ سبحانه وتعالى. يقول عن داود ـ عليه السلام ـ:

---

(١) سورة الذاريات، من ٥٦ ـ ٥٨.

(٢) رواه أحمد ـ الفتح الربانى.

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾(١).

وعن سليمان ـ عليه السلام ـ:

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾(٢).

وعن أيوب ـ عليه السلام ـ:

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾(٣).

وعن سيدنا إبراهيم وإسحق ويعقوب ـ عليهم السلام ـ:

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾(٤).

وهكذا لم يقل ـ سبحانه وتعالى ـ: واذكر رسلنا أو أنبياءنا، وإنما وصفهم فى هذا الموطن.. موطن المدح والثناء بأنهم عباد له جل علاه..!

وعن إمام الأنبياء وخاتم المرسلين، يقول ـ سبحانه ـ:

---

(١) سورة ص: ١٧

(٢) سورة ص: ٣٠.

(٣) سورة ص: ٤١.

(٤) سورة ص: ٤٥.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾(١).

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾(٢).

فغاية المؤمن ـ إذن ـ أن يكون عبدا خالصا لخالقه وبارئه ـ عز وجل ـ والذى لاريب فيه.. أن العبادة هى طريق المؤمن إلى تحقيق هذه الغاية السامية النبيلة.. لهذا.. كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعبد ربه ـ عز وجل ـ على كل حال من أحواله؛ ليحقق تلك الغاية العظيمة، التى ينشدها الخُلَّص من عباد الله.. فكثيرا ماكان يقوم الليل حتى تتورم قدماه، وتشفق عليه إحدى أمهات المؤمنين، وتناشده الرفق بنفسه، مخبرة إياه بأن الله ـ سبحانه ـ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكان يجيبها بقوله: «**أفلا أكون عبدا شكورا**(٣)..؟»، وتقول عنه أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ فيما رواه أحمد: «**كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلي الصلاة، وكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه**».

---

(١) سورة الكهف: ١.

(٢) سورة الأسراء: ١.

(٣) الكرمانى على البخارى ج ٦: صـ ١٨٦.

وكم كان حنينه إلى عبادة ربه ـ سبحانه وتعالى ـ يبعده عن ملذات الحياة المباحة، وطيباتها المشروعة، ولين الفراش ودفء الزوجة الأثيرة عنده المحبوبة لديه.. عن عطاء قال: دخلت أنا وعبد الله بن عمر وعبيد بن عمر، على عائشة ـ رضى الله عنها ـ فقال ابن عمر: حدثينى بأعجب ما رأيت من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبكت، ثم قالت: كل أمره كان عجبا..!!

أتانى فى ليلتى حتى إذا دخل معى فى لحافى وألصق جلده بجلدى، فقال لى: «**ياعائشة.. أتأذنين لي في عبادة ربى ـ عز وجل ـ؟**» فقلت: إنى لأحب قربك، وأحب هواك[1].. قالت: فقام إلى قربة فى البيت فلم يكثر صب الماء، ثم قام فقرأ القرآن.. ثم بكى حتى رأيت دموعه بلت حُجْزَتَه[2]، ثم اتكأ على جنبه الأيمن، ثم وضع يده اليمنى تحت خده، ثم بكى حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض.. فجاء بلال يؤذنه بالصلاة فوجده يبكى..!!. فقال: يارسول.. أتبكى وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وماتأخر..؟ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ﴿ **أفلا أكون عبدا شكورا**..؟؟»

---

(١) أى: أحب قربك منى، وأحب ما تهواه.

(٢) الحجزة: معقد الإزار.

ثم قال: «**ومالي لا أبكى.. وقد أنزل الله علىَّ الليلة:**

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1]. الآيات، ثم قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**ويل لمن قرأها ولم يتدبرها..!!**»[2].

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقبل على عبادة ربه ـ عز وجل ـ فى شغف وحب منقطع النظير، وكان شوقه إلى ربه، وشغفه إلى مناجاته ينسيه الجهد والتعب، فكان يطيل القيام والركوع والسجود بشكل لا يقوى عليه غيره من المسلمين الأشداء.. يقول حذيفة ـ رضى الله عنه ـ: «**قمت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات ليلة فقرأ السبع الطوال فى سبع ركعات.. كان إذا رفع رأسه من الركوع، قال: «سمع الله لمن حمده»، ثم قال: «الحمد لله ذى الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة»، وكان ركوعه مثل قيامه، وسجوده مثل ركوعه، فانصرفت وقد كادت تنكسر رجلاى**»[2].

***

هذا.. وإن كان معنى العبادة عند البعض معنى ضيقا، ومفهومها مفهومًا محدودا، لا يتجاوز الصلاة، والصوم،

(١) الوفا بأحوال المصطفى جـ ٢ ص ٥٣٩.

(٢) ابن كثير جـ٣ ص ٥٨٣.

والزكاة.. الخ، فإن مفهوم العبادة عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان أعم وأشمل من هذا كله.. إن العبادة عنده تشمل جوانب الحياة كلها.. لقد كان يعبد ربه بالصلاة، كما يعبده ـ سبحانه ـ بالإحسان إلى الجار، وبالتودد إلى زوجاته، وببر من يحتاج إلى بره وعطفه، كما كان يعبده بتربية أبنائه وأحفاده، وبالجهاد فى سبيل الله، بل وبإماطة الأذى عن الطريق، وإدخال السرور على اليائس الحزين.. وفى الحقيقة.. هذه المعانى كلها تكوِّن معنى التعبد فى نظر الإسلام الحنيف..!!

خاتمة

واجبنا نحوه صلى الله عليه وسلم

* محبته صلى الله عليه وسلم.
* الاقتداء به صلى الله عليه وسلم.
* نصرة دينه صلى الله عليه وسلم.
* الإكثار من الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم.

obeikandl.com

وعـــــن:

١ ـ وجوب محبته صلى الله عليه وسلم..

يقـــول:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾(١).

لقد أوجب الله ـ تبارك وتعالى ـ حبه، وحب نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على كل فرد من أفراد هذه الأمة.. وبين ـ سبحانه ـ أن حب المرء لله ولرسوله لن يكون كاملا إلا إذا كان هذا الحب مقدما على كل ما عداه.. مقدما على حبه

---

(١) سورة التوبة: ٢٤.

لأبيه، وابنه، وأخيه وزوجته، وعشيرته وهم قرابته الأدنون.. مقدما على المال الذى اكتسبه وملكه.. وعلى تجارة يخاف بوارها.. وعلى المسكن المترف المريح.. بل ومقدما على حب المرء لنفسه التى بين جنبيه.. روى البخارى بسنده عن عبد الله بن هشام ـ رضى الله عنه ـ قال: كنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يارسول الله.. لأنت أحب إلىَّ من كل شئ إلا من نفسى.. فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لا والذي نفسي بيده.. حتي أكون أحب إليك من نفسك..**» فقال عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلىَّ من نفسى.. فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**الآن ياعمر..!**».

ليس هناك فى الدنيا ما يغرى الإنسان بحبه.. ويملك عليه كل إحساسه.. ويتحكم فى غرائزه.. ويدير دفة مشاعره.. أكثر من هذه الأمور التى ذكرها رب العالمين ـ سبحانه وتعالى ـ فى هذه الآية الكريمة.. إنها بلا ريب أهم المهمات فى حياة كل فرد من بنى البشر، ومن أجلها يضحى.. ويشقى.. ويكد.. ويعرق.. ولها يبذل كل حبه.

أجل.. ! إن الإنسان.. كل إنسان.. يضحى من أجل الأب والابن والأخ والزوجة والعشيرة.. إلا من فقد النخوة

والمروءة..! والإنسان.. كل إنسان.. يبذل حياته، وينفق عافيته وصحته من أجْل المال، والتجارة، والبيت الحسن.. تلك طبيعة البشر جميعا، وهذه أخص خصائص الإنسان..!

لكن الله ـ تبارك وتعالى ـ فى هذه الآية الشريفة ـ يأمر نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يعلن على أمته: أن من يؤثر شيئا من هذه الأمور على محبة الله ورسوله وعلى الجهاد فى سبيل الله ودينه.. فلينتظر انتقام الله وعقابه:

﴿ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾(١).

ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه يؤكد هذا المعنى ويعمقه، فيما يرويه الشيخان: البخارى ومسلم عن أنس ـ رضى الله عنه ـ إذ يقول: **«ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان.. أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود إلي الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار».**

وينفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الإيمان عمن لا يتمكن حبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قلبه حتى يغطى هذا الحب

---

(١) سورة التوبة: ٢٤.

على حبه لكل شئ، حتى ولو كان أقرب الأقرباء إليه، وأخص من يخصه.. إذ يقول: « **والذي نفسي بيده لايؤمن أحدكم حتي أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»[1].

* صور من حب أصحابه له صلى الله عليه وسلم:

لقد ضرب الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ المثل الأعلى فى صادق حبهم لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان حبه يملك على أحدهم كل قلبه، وكان آثر عندهم من الوالد والولد والزوجة وكل متع الحياة مهما كانت جاذبيتها.. سئل على بن أبى طالب: كيف كان حبكم لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ..؟، فقال: كان رسول الله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا، وأحب إلينا من الماء البارد على الظمأ[2]..!

وكان حبهم ـ رضى الله عنهم ـ له، يُضفى عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ هيبة فى عيونهم، ويحملهم على توقيره، واحترامه، وإجلاله، حتى إن أحدهم ما كان يستطيع أن ينظر إليه مهابة وإجلالا.. يروى مسلم عن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: ما كان أحد أحب إلىَّ من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا أجل فى عينى منه، وما

---

(١) رواه البيهقى والحاكم.

(٢) رواه البيهقى.

كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالا له حتى لو قبل لى صفه ما استطعت أن أصفه..!

لقد امتاز حب الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لرسولهم بصدق الإحساس نحوه، كان حبا مطبوعا لا مصطنعا، حبا يجعل أحدهم يتمنى فى قرارة نفسه أن يفتديه بكل غال ونفيس، ولو كان الفداء روحه التى بين جنبيه.. روى البيهقى عن عروة ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: لما أخرج أهل مكة زيد بن الدَّثِنَّة ـ رضى الله عنه ـ وكان قد أسر يوم الرجيع ـ من الحرم ليَقتلوه، قال له أبو سفيان بن حرب وهو يومئذ مشرك: أنشدك بالله يازيد.. أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك نضرب عنقه.. وأنك فى أهلك..؟ فقال زيد: والله ما أحب أن محمدا فى مكانه الذى هو فيه مقيم تصيبه الشوكة ـ أى: أقل شئ من الأذى ـ وإنى جالس فى أهلى ـ سالم من الأذى ـ فقال أبو سفيان: ما رأيت أحدا من الناس يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا..!

لقد كان حبا يملك على أحدهم كل إحساساته ومشاعره، فيجعله لا يقوى على البعد عنه ولو لبعض الوقت، دائم الشوق إلى رؤيته.. جاء فى القرطبى: إن ثوبان مولى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان شديد الحب له، قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه، ونحل جسمه يعرف الحزن فى وجهه، فقال له: «**ياثوبان.. ما غير لونك..؟**»، فقال: يارسول الله.. مابى ضر ولا وجع غير أنى إذا لم

أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك.. ثم ذكرت الآخرة، وأخاف أن لا أراك هناك؛ لأنى عرفت أنك ترفع مع النبيين، وإنى إن دخلت الجنة كنت فى منزلة هى أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل فذلك حين لا أراك أبدا، فأنزل الله قوله:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾(١).

***

* كيف نحبه صلى الله عليه وسلم..؟

لاريب.. أن فى هذه الأمثلة الحية.. وتلك النماذج المشرقة.. خير إجابة على هذا السؤال.. كيف نحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم..؟؟

نحبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكثر من كل شئ.. من المال.. والمنصب.. والجاه.. من الولد والزوجة.. من النفس والحياة.. من الدنيا بأسرها..!!

ولابد أن يكون لهذا الحب أثر فى سلوكنا، وصدى فى حياتنا.. هذا الأثر.. وذالك الصدى..هو:

---

(١) سورة النساء: ٦٩، ٧٠.

وعـــــن:

٢ ـ وجوب اتباعه والاقتداء به صلى الله عليه وسلم

يقـــول:

أ ـ ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١).

ب ـ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾(٢).

لقد جعل رب العالمين الدليل على صدق محبته ـ سبحانه وتعالى ـ اتباع نبيه الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورتب على هذا الاتباع محبته ـ سبحانه ـ لعبده، ومغفرة ذنوبه، أى: رتب على اتباع رسول الله تحقيق السعادة فى الدارين: الأولى الآخرة.

---

(١) سورة آل عمران: ٣١.
(٢) سورة الأحزاب: ٢١.

وفى الآية الثانية بين ـ سبحانه وتعالى ـ أن مَن أراد النجاة فى الآخرة، ومن كان حريصا على رضا الله ـ عز وجل ـ فما عليه إلا أن يحسن الاقتداء بهذا النبى ـ صلى الله عليه وسلم..

أجل..! إن الخير كل الخير فى اتباع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كل ما جاء به من عند رب العالمين ـ سبحانه ـ وإن السعادة فى حسن الاقتداء به.. فمن زعم أنه يحب الله أو يحب رسوله، وكان عمله وسلوكه يخالف هدى رب العالمين، وكان على النقيض من سنة إمام الأنبياء وخاتم المرسلين ـ فهو كاذب فى دعواه تلك، وكتاب الله ـ سبحانه ـ يكذبه:

﴿ فَاتَّبِعُونِي قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ ﴾(١).

ومن زعم أنه يحرص على رضا ربه ـ سبحانه ـ ويعمل للآخرة الباقية.. وكان عمله وسلوكه بعيداً كل البعد عما جاء به هذا النبى الكريم.. فهو كاذب.. وكتاب الله ـ سبحانه ـ يكذبه:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾(٢).

(١) سورة آل عمران: ٣١.
(٢) سورة الأحزاب: ٢١.

إن اتباع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والاقتداء به آية على محبة العبد لله ولرسوله.. إنها ترجمة عملية لهذه المحبة، وأثر من آثارها.. وفضلا عن ذلك فالاتباع وحسن الاقتداء فرض ألزمنا به رب العالمين ـ سبحانه ـ وأوجبه علينا بهاتين الآيتين من سورة آل عمران، والأحزاب، وبقوله عز وجل:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(١).

ويؤكد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه القضية الهامة والخطيرة، فيبين في جلاء ووضوح أنه ليس بمؤمن من لا يحسن الاقتداء به، ومن تكون تصرفاته مخالفة تماما لسنته، ويكون في شئونه كلها أو بعضها نزَّاعا(٢) إلى غير هديه.. قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه الترمذي وأبو داود: **«لا يؤمن أحدكم حتي يكون هواه تبعا لما جئت به»**.

ثم.. هاهو ذا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يدق لأمته ناقوس الخطر، ويشعل لنا الضوء الأحمر، ليثير انتباهنا، ويلفت نظرنا، ولنكون على بينة من أمرنا.. إذ يقول فيما يرويه مسلم عن أبي هريرة، في حديث طويل، ومنه: «..

(١) سورة الحشر: ٧
(٢) نَزَع إلى كذا، أي اشتاق إليه.

ألا ليذادن رجال عن حوضى كما يذاد البعير الضال.. أناديهم.. ألا هَلُمّ..!، فيقال: إنهم بدلوا بعدك.. فأقول: سحقا.. سحقا..!!.

إن النجاة يوم القيامة، وشرف الورود على الحوض، لن يكون إلا لمن أحسن الاقتداء بهذا النبى الكريم، وتمسك بالكتاب، واهتدى بالسنة الصحيحة..!

أما هؤلاء الذين يحدثون فى دين الله ـ سبحانه وتعالى ـ ماليس فيه، ويبتدعون ولا يتبعون، يعبدون الله حسب هواهم، ويُخضعون الدين لمصالحهم وأهوائهم، ليحققوا كسبا ماديا، أو يحافظوا على مغنم عاجل، أو منصب رفيع، أو منزلة اجتماعية، ويسترشدون بغير هدى ربهم ونبيهم.. هؤلاء سيطردون يوم القيامة من على موائد كرم الله ـ سبحانه وتعالى ـ وستغلق فى وجوههم أبواب رحمته، وسيبعدون عن حوضه ـ صلى الله عليه وسلم..!

أجل..! سيطردون كما يطرد البعير الضال.. فحينما يأتون مع الآتين بعد بعثهم، ليردوا الحوض مثلهم، تضربهم الملائكة كما يُضرب البعير الضال.. وتبعدهم عن الحوض الشريف.

ويراهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم على تلك الحال المزرية، فيغضب لهم، ويناديهم: «أقبلوا..

أقبلوا..!»، ويخاطب الملائكة: «إنهم من أمتى» سمتهم واضحة على جبينهم.. فلِمَ تفعلون بهم ما أرى..؟ ولِمَ تضربونهم وتبعدونهم عن حوضى..؟!، وهم أحق الناس به.. وأحوجهم إلى مائه..؟!

ويأتيه الجواب من علام الغيوب.. رب العزة ـ تبارك وتعالى ـ: «إنك ـ يامحمد ـ لا تدرى ماأحدثوا بعدك.. إنهم غيروا وبدلوا» فيحزن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كل الحزن، ويتألم كل الألم، ويقول: «سحقا.. سحقا..!!.. أى: بُعْدًا لهم ثم بعدا.. بعدا لهم عن رحمة الله ـ تعالى ـ بعدا لا يشمون معه رائحة الجنة، مع أن رائحتها تُشم على بعد أربعين سنة.. بُعدا لا يرون[1] معه نعيمها..!

فليحذر هؤلاء الذين يخالفون عن أمره، فيبتدعون فى دين الله ماليس منه، وليعلموا أنه لا نجاة لهم يوم القيامة، إلا باتباع هذا الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحسن الاقتداء به..!

---

(١) يراجع فى هذا الموضوع الجزء الثالث من كتاب المؤلف (قبس من الهدى النبوى).. فقد تناولناه هناك بكثير من التفصيل.

وعـــن:

٣ ـ وجوب نصرته صلى الله عليه وسلم ..

يقـــول:

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(١).

لعل من أبرز آثار محبة المسلم لنبيه ورسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبذل المسلم المحب ذات نفسه، فداء لمن أخرجه من عمى الجهالة، وظلام الضلالة، إلى نور الإيمان والمعرفة والهداية.. فداء لحبيبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحماية للمبادئ السامية الرفيعة التى جاء بها من عند رب العالمين ـ سبحانه وتعالى ـ والتعاليم السمحة التى دعا إليها.. وحفاظا على هذا الدين الحنيف الذى حمل الخير

(١) سورة الأعراف: ١٥٧.

الدنيوى والأخروى للبشرية كلها.. ونصرة لمن خالط حبه قلبه، وملك مسالك فكره.. قال ـ سبحانه وتعالى:ـ

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۚ ﴾(١).

إن الإيمان الصادق برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونصرة دينه القويم، واتباع «النور الذى أنزل معه».. هو طريق المؤمن إلى الفوز والفلاح فى الدنيا والآخرة:

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(٢)

***

* كيف ننصره صلى الله عليه وسلم..؟

إن نصرنا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو حفاظنا على المبادئ التى شرفنا الله ـ تعالى ـ بحملها، وجاءنا بها هذا النبى الكريم، والتى هى كفيلة بهداية البشرية الحائرة الضالة، وإخراجها من الظلمات إلى النور.

وهذه المبادئ هى: إقامة حدود الله، والمحافظة على

---

(١) سورة التوبة: ١٢٠.

(٢) سورة الأعراف: ١٥٧.

طاعته ـ سبحانه ـ وإحياء سنته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإقامة أركان ديننا الإسلامى الحنيف، والتى من أهمها، إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر.. تلك المبادئ الرشيدة التى بينها رب العالمين ـ سبحانه وتعالى ـ فى قوله:

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾(١).

إن نصر الله ـ تبارك وتعالى ـ لعباده مرهون بنصرهم هم له ـ سبحانه ـ ولرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونصرنا لله معناه إحياء مبادئ شرعه الحكيم، وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ.. حينذاك نكون جديرين بنصر الله لنا وتأييده ومدده..!!

إن نصرنا لله ولرسوله.. معناه أيضا: الحفاظ على هذا الدين، والجهاد من أجل إعلاء كلمته، ورفع رايته عزيزة خفاقة مهابة.. والتضحية بالنفس والمال، وبكل نفيس وغال..!

---

(١) سورة الحج: ٤٠، ٤١.

ورحم الله سلفنا الصالح ورضى عنهم؛ لقد ضحوا تضحيات لا مثيل لها فى سبيل نصرة الله ورسوله، وضربوا أروع الأمثال فى بذل أرواحهم وحياتهم فداء لنبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحفاظا على ماجاء به.. عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: غاب عمى أنس بن النضر ـ رضى الله عنه ـ عن قتال بدر، فقال: يارسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدنى قتال المشركين ليرين الله ما أصنع.. فلما كان يوم أحد، انكشف المسلمون، فقال: اللهم أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى أصحابه ـ وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى المشركين ـ ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ.. الجنة ورب الكعبة، إنى أجد ريحها من دون أحد..! قال سعد: فما استطعت يارسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة بالرمح أو رمية بسهم، ووجدناه قُتل ومثَّل به المشركون.. فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه..! قال أنس: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه:

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾(١).

(١) رواه البخارى.

وهذا زميله فى الكفاح والتضحية والاستشهاد فى الغزوة نفسها: «عبد الله بن عمرو بن حرام»، والد الصحابى الجليل جابربن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ يخرج إلى غزوة أحد وهو طامع فى الاستشهاد، ومن صدق إحساسه تراءى له مصرعه قبل أن يخرج إليها، وغمره إحساس صادق بأنه لن يعود.. وكاد قلبه يطير من الفرح لهذا الإحساس العجيب، فدعا ابنه «جابرا» وقال له: إنى لا أرانى إلا مقتولا فى هذه الغزوة، بل لعلى سأكون أول شهدائها من المسلمين، وإنى ـ والله ـ لا أدع أحدا بعدى أحب إلىَّ منك بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإن علىَّ دينا فاقض عنى دينى، واستوص بإخوتك خيرا..!

وخرج المسلمون فى صبيحة اليوم التالى إلى لقاء قريش، ولما التقى الجمعان، دارت رحى معركة رهيبة، قاتل فيها عبد الله بن عمرو قتال مودِّع وشهيد.

وفى نهاية المعركة وُجد ـ رضى الله عنه ـ بين الشهداء وقد مثل به المشركون كما مثلوا بغيره من الأبطال، ووقف ابنه جابر وبعض أهله يبكون شهيد الإسلام عبد الله بن عمرو، ومر بهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم يبكون، فقال: «**ابكوه.. أو لاتبكوه.. فإن الملائكة لتظله بأجنحتها..!!**»

هذان نموذجان من نماذج لا حصر لها من نضرة سلفنا الصالح لله ولرسوله.. نصرة بأثمن شئ فى الدنيا.. بالروح والحياة معا.. وهكذا ينبغى أن تكون نصرتنا لله ـ سبحانه وتعالى ـ ولرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكل ما هو غالٍ ونفيس..!!

obeikandl.com

وأخيرا.. عـــن:

٤ ـ وجوب الصلاة والسلام عليه

صلي الله عليـه وسلـم ..

يقـــــول:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(١).

يخبر رب العالمين ـ سبحانه وتعالى ـ عباده فى هذا القول الكريم، من الذكر الحكيم بمكانة حبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى لا تدانى، ومنزلته التى لا تسامى... تلك المنزلة السامية الرفيعة التى لم ينلها واحد من الخلق، لا ملك مقرب، ولا نبى مرسل، وخُص بها إمام الأنبياء وخاتم المرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليه..

---

(١) سورة الأحزاب: ٥٦.

إن هذه الآية الكريمة وسام شرف وفخار أنعم به الفعال لما يريد، القادر المهيمن، رب العالمين ـ عز وجل ـ على حبيبه وصفوته من خلقه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى كشف وبيان لمكانته التى لا تضارع فى الملأ الأعلى..؟

لقد أخبرنا ـ سبحانه وتعالى ـ بأنه يصلى على حبيبه محمد، وأن ملائكته الكرام يصلون عليه، وأمرنا أن نقتدى به ـ عز وجل ـ وبملائكته الكرام، فنصلى ونسلم عليه دون الأنبياء والمرسلين جميعا، تشريفا له، وتكريما، وإعلاء لمنزلته، ورفعا لدرجته، وبيانا لعظيم فضله، وجليل قدره..!

والصلاة من الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليه. قيل: الثناء عليه فى الملأ الأعلى، وقيل: الرحمة، ومن الملائكة: الاستغفار، ومنا نحن: طلب علو المنزلة والدرجة له صلى الله عليه وسلم.

* حكم الصلاة عليه:

قال القرطبى: ولا خلاف فى أن الصلاة عليه فرض فى العمر مرة، وفى كل حين من الواجبات وجوب السنن المؤكدة التى لايسع تركها ولا يغفلها إلا من لا خير فيه.. اهـ.

إن الصلاة على رسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ واجبة بالإجماع، لكنهم اختلفوا فى حال وجوبها.. على مايأتى:

أ ـ أنها واجبة كلما جرى ذكره.. ويُروى أنه قيل له: يا رسول الله.. أرأيت قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ ﴾(١)

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**هذا من العلم المكنون، ولولا أنكم سألتمونى عنه ما أخبرتكم به.. إن الله تعالى وكّل بى ملكين فلا أذكر عند مسلم فيصلّى علىّ إلا قال ذلك الملكان: غفر الله لك، وقال الله ـ تعالى ـ وملائكته جوابا لذينك الملكين: آمين.. ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصلى علىّ إلا قال ذلك الملكان: لاغفر الله لك، وقال الله تعالى ـ وملائكته لذينك الملكين: آمين**»(٢).

وعن كعب بن عجرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «احضروا المنبر» فحضرنا، فلما صعد الدرجة الأولى، قال: «آمين» فلما صعد الدرجة الثانية، قال: «آمين»، فلما صعد الدرجة الثالثة، قال «آمين»، فلما نزل قلنا: يارسول الله.. سمعنا منك شيئا لم تكن تصنعه..؟ فقال: «**عرض لى جبريل، فلما كنت على الدرجة الأولى، قال: بَعُدَ من ذكرت عنده فلم يصل عليك، فقلت آمين، فلما رقيت الدرجة الثانية، قال: بَعُد من أدركه شهر رمضان فلم يغفر**

(١) سورة الأحزاب: ٥٦.

(٢) ذكره القرطبى.

له، فقلت: آمين، فلما رقيت الدرجة الثالثة، قال: بَعُد من أدرك أبويه عنده الكبرُ أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة، فقلت: آمين».

وروى الترمذى بسند ينتهى إلى أبى هريرة، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علىّ، ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنه**».

وروى أحمد بسنده عن على بن الحسين عن أبيه، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم قال: «**البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصلّ علىّ**».

هذه الأحاديث كلها تلزم المسلم أن يصلى على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما يذكر اسمه الشريف أمامه، فإن لم يفعل فهو مُبعد عن رحمة الله ـ سبحانه ـ كما فى حديث كعب بن عجرة، مرغم الأنف كما فى حديث أبى هريرة، بخيل كما فى حديث على.. وهذا كله يقوى الرأى القائل بوجوبها عند جريان ذكره.

ب ـ أنها تجب فى كل مجلس مرة.. روى الترمذى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**ماجلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا**

على نبيهم، إلا كان عليهم ترة[1] يوم القيامة، فإن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم».

وروى إسماعيل القاضى عن أبى سعيد أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**مامن قوم يقعدون ثم يقومون ولا يصلون على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا كان عليهم يوم القيامة حسرة وإن دخلوا الجنة، لما يرون من الثواب**».

ج ـ أما الصلاة على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الصلاة.. فالجمهور على أنها من سنة الصلاة ومستحباتها.. ويرى الشافعى أنها فرض فى التشهد الأخير، وعلى من تركها إعادة الصلاة سواء كان ناسيا أو متعمدا، وأوجب إسحق بن راهويه الإعادة فى العمد دون النسيان، وذهب إلى وجوبها فى الصلاة محمد بن المواز من المالكية وأحمد بن حنبل فيما حكاه عنه أبو زرعة الدمشقى، واختاره ابن العربى.. لما رواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن خزيمة وابن حبان والحاكم فى مستدركه بسند ينتهى إلى أبى مسعود البدرى: أنهم قالوا: يا رسول الله .. أما السلام فقد عرفناه فكيف نصلى عليك إذا نحن صلينا فى صلاتنا؟ فقال: «**قولوا: اللهم صل علي محمد وعلي آل محمد كما صليت علي آل إبراهيم، وبارك علي محمد وعلي آل محمد كما باركت علي آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم**». وتلك هى صفة الصلاة عليه ـ صلى الله عليه وسلم...

---

(١) أى: حسرة.

* فضل الصلاة عليه:

إن للصلاة على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فضلا عظيما، وثوابا جزيلا، كشف عنه رسول الله نفسه فى أحاديث كثيرة، نشير إلى بعضها هنا؛ لنعرف مدى الفضل الذى يحوزه ويفوز به من أكثر من الصلاة والسلام عليه:

١ ـ الملائكة تصلى على من يصلى عليه.. روى أحمد عن شعبة عن عاصم بن عبيد الله، أنه قال: سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يحدث عن أبيه، أنه قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «**من صلى عليَّ صلاة لم تزل الملائكة تصلي عليه ما صلي عليَّ، فليُقلّ عبد من ذلك أو يكثر**».

٢ ـ أحق الناس بشفاعته ـ صلى الله عليه وسلم ـ مَن يكثرون من الصلاة والسلام عليه.. روى الترمذى عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**أولي الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة**».

٣ ـ فى الصلاة والسلام كثيرا، تفريج لهموم الدنيا، وهموم الآخرة.. روى أحمد عن الطفيل بن أبى عن أبيه، أن رجلا قال: يارسول الله.. أرأيت إن جعلت صلاتى كلها عليك...، فقال: «**إذن يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك**».

٤ ـ فى الصلاة والسلام عليه.. شرف لامثيل له.. إذ يصلى رب العالمين ـ عز وجل ـ على من يصلى عليه ـ صلى

الله عليه وسلم ـ ورفع لدرجات من يصلى عليه.. وتكفير لسيئاته.. روى مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**من صلي عليّ واحدة صلي الله عليه بها عشرا**».. وروى الإمام أحمد عن أبى طلحة الأنصارى، قال: أصبح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوما طيب النفس يرى فى وجهه البشر، قالوا: يارسول الله.. أصبحت اليوم طيب النفس.. يرى فى وجهك البشر، قال: «**أجل.. أتاني آت من ربي ـ عز وجل ـ فقال: من صلي عليك من أمتك صلاة كتب الله له بها عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات.. ورفع له عشر درجات.. ورد عليه مثلها**».

٥ ـ وأخيرا.. فالصلاة على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تطهير للمرء.. وعلو لمنزلته عند الله ـ عز وجل ـ روى أحمد عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «**صلوا عليّ.. فإنها زكاة لكم.. وسلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في أعلي الجنة، ولاينالها إلا رجل، وأرجو أن أكون أنا هو**».

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا وحبيبنا محمد، وعلى آل محمد، كما صليت ورحمت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد.
اللهم واجعله شفيعا لى ولوالدىَّ ولآلى، ياذا الجلال والإكرام.

«والحمد لله رب العالمين»

المراجع

القرآن الكريم
صحيحا البخارى، ومسلم
الترمذى وأبو داود
الموطأ للإمام مالك
مسند الإمام أحمد
المستدرك للحاكم
دلائل النبوة للبيهقى
الشفاء للقاضى عياض
سيرة ابن هشام
سيرة ابن كثير
الروض الأنف للسهيلى
البستان للقيروانى
فتح القدير للشوكانى

obeikandl.com

obeikandl.com

المحتويات

* **المقدمة** ٧

* **الباب الأول: ماقبل ميلاده الشريف صلى الله عليه وسلم** ١٥

١ ـ أخذ العهد على الأنبياء أن يؤمنوا به ويؤازوه صلى الله عليه وسلم ١٧

الإرهاص.. معناه.. والحكمة منه ١٧

الإرهاص سنة من سنن الله تعالى فى كونه ١٨

الإرهاص لرسول الله صلى الله عليه وسلم ١٩

٢ ـ دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام ٢٣

٣ ـ بشارات التوراة والإنجيل ٢٧

بل تمت البشارة به ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن يخلق آدم عليه السلام ٣٢

٤ ـ معرفة أهل الكتاب به ـ صلى الله عليه وسلم ـ معرفة جلية. ٣٧

بسبب معرفته هاجر أحبارهم إلى يثرب ٤٢

وآمن سلمان الفارسى رضى الله عنه ٤٤

٥ ـ صفته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصفة أصحابه فى التوراة والإنجيل. ٥٥

٦ ـ حادث الفيل ودلالته ٦١
٧ ـ بشارات ذكرتها السنة الصحيحة، وأخرى رواها المؤرخون ٦٩
* **الباب الثانى: مرحلة طفولته صلى الله عليه وسلم** ٧٣
١ ـ رعاية الله له صلى الله عليه وسلم ٧٥
اليتيم الذى آواه الله تعالى ٧٦
من مظاهر تأديب الله له صلى الله عليه وسلم ٨٣
الفقير الذى أغناه الله تعالى ٨٩
قصة بحيرى الراهب ٩١
خروجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تجارة خديجة رضى الله عنها ٩٥
راهب يخبر ميسرة بنبوته صلى الله عليه وسلم. ٩٧
وميسرة يخبر خديجة بسجاياه وشمائله. ٩٨
سفارة.. وزواج. ٩٨
٢ـ شرح صدره.. ورفع ذكره صلى الله عليه وسلم. ١٠٣
٣ ـ إعداده ـ صلى الله عليه وسلم ١٠٣
شق صدره.. صلى الله عليه وسلم ١٠٦
ب ـ «ورفعنا لك ذكرك» ١١١
من رفع ذكره أن قرن ـ سبحانه ـ بين اسمه واسمه ١١١
من رفع ذكره أن نوه به فى الكتب السابقة. ١١٣

أ ـ نبوءة شق وسطيح به صلى الله عليه وسلم ١١٤
ب ـ وبسببه انصرف تبع عن يثرب وعمر البيت الحرام وكساه ١١٥
جـ ـ وعنه تحدث كاهن جَنْب ١١٦
د ـ وأسلم الكاهن سواد بن قارب. ١١٦
* **الباب الثالث : بعثته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما بعدها** ١٢١
١ ـ أول ما بدئ به من أمر النبوة ١٢٣
كيف نبئ صلى الله عليه وسلم. .؟؟ ١٢٥
كيف كان يتنزل القرآن عليه صلى الله عليه وسلم. .؟؟ ١٣٠
٢ ـ بعثته وإرساله صلى الله عليه وسلم ١٣٢
٣ ـ عظيم مكانته عند ربه عز وجل ١٣٩
بشرى تثلج صدره صلى الله عليه وسلم ١٤١
الجهر بدعوته صلى الله عليه وسلم ١٤٤
صور من أذى المشركين وتطاولهم. . ودفاع القرآن عنه: ١٥٠
١ ـ ترغيب وترهيب. . ثم تهكم ووعيد. .!! ١٥٢
٢ ـ سخرية واستهزاء. .!! ١٥٧
٣ ـ إساءة من العم وزوجه. . ووعيد من الرب سبحانه. .!! ١٥٨
٤ ـ عبرة وندم بعد فوات الأوان. .!! ١٥٩

٥ ـ عرض يرفضه القرآن الكريم ويرده ١٦١
٦ ـ حجة ساقطة.. ورد مُفحم..!! ١٦٢
٧ ـ أبو جهل ـ عليه لعنة الله ـ والهول الذى رآه. ١٦٤
٨ ـ سوء أدب وتطاول. ١٦٦
* **الباب الرابع: محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ المثل الأعلى للإنسان الكامل.** ١٦٩
١ ـ المهام التى كلف بها صلى الله عليه وسلم ١٧١
٢ ـ الغاية من بعثته صلى الله عليه وسلم. ١٧٧
* **صور من الرحمة التى بعث بها:** ١٧٩
أ ـ إنصافه المرأة ١٧٩
ب ـ تحرير الأرقاء ١٨١
جـ ـ الاهتمام بالضعفاء. ١٨٤
٣ ـ إنسانياته صلى الله عليه وسلم ١٨٨
٤ ـ أخلاقه.. صلى الله عليه وسلم: ١٩٥
أ ـ حلمه.. صلى الله عليه وسلم ١٩٨
أثر حلمه .. صلى الله عليه وسلم. ٢٠٣
ب ـ تواضعه.. صلى الله عليه وسلم ٢٠٦
جـ ـ كرمه وسخاؤه صلى الله عليه وسلم ٢١٠
أثر كرمه صلى الله عليه وسلم. ٢١٢
٥ ـ حفظ الله له ورعايته صلى الله عليه وسلم. ٢١٥
عداوات شرسة تحيط به صلى الله عليه وسلم ٢١٨

٦ ـ عبادته صلى الله عليه وسلم ٢٢٤
تعبده صلى الله عليه وسلم. ٢٧٧
خاتمة: واجبنا نحوه صلى الله عليه وسلم: ٢٣٣
١ ـ وجوب محبته صلى الله عليه وسلم. ٢٣٥
صور من حب أصحابه له صلى الله عليه وسلم. ٢٣٨
كيف نحبه صلى الله عليه وسلم. ٢٤٠
٢ ـ وجوب اتباعه والاقتداء به صلى الله عليه وسلم ٢٤١
٣ ـ وجوب نصرته صلى الله وعليه وسلم. ٢٤٦
كيف ننصره صلى الله عليه وسلم. ٢٤٧
٤ ـ وجوب الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم. ٢٥٢
حكم الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم. ٢٥٣
فضل الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ٢٥٧
المراجع. ٢٥٩

كتب للمؤلف

١ ـ طريق النجاة
٢ ـ سمات المسلم
٣ ـ في رحاب شهر الهدي والفرقان.
٤ ـ قبس من الهدي النبوي ٤ أجزاء.
٥ ـ سلاح الواعظ والخطيب في مواجهة تيارات الإلحاد ومشاكل العصر.

obeikandl.com

obeikandl.com